

ثورتا تونس ومصر - أخطار اللطف وامتصاص الزخم



صائب خليل
30 كانون الثاني 2011

تعرض كل ثورة إلى محاولة سرقتها وتقليص مكاسبها إلى أمور شخصية أو سطحية غير مؤثرة على مصالح القوى الكبرى، وهي في حالة تونس ومصر، أميركا وإسرائيل. كلتا الثورتين، التونسية والمصرية، أثبتتا حتى الآن أنهما على وعي تام بهذه المؤامرات. مع ذلك فالأنظمة القبيحة لن تستسلم بسهولة، وستستعمل العنف والتفكير في نفس الوقت، وعلى الثورة أن تبقى على نفس المستوى وأن تتمكن من ملاحظة كل حركة وتحليلها والرد عليها بما يكفي لحرها.

تونس

منذ أن شكل محمد الغنوشي حكومته الجديدة الأولى المؤقتة والقلق والريبة يتصاعدان، ليس فقط لدى المراقبين بل في الشارع التونسي والعربي. لم يكن الغنوشي وحده المشكلة، بل كانت الحكومة مشكلة من مجموعة من وجوه النظام الكريه بشكل أساسي ومن بينهم وزير الداخلية الذي عينه بن علي قبل رحيله تماماً، فأية حكومة هذه؟
فالسؤال الوجيه هو: أليس هناك من يفقد مثل تلك الحكومة غير وجه ارتبط بـ بن علي منذ قيامه، بل وقبل استلامه رأس القيادة في تونس؟ إن من يدير مشروع هذه الحكومة ليس حريصاً على مشاعر الناس، فحتى لو كان الغنوشي قد تاب فجأة، فيفترض أن يبتعد عن القضية حتى تستتب الأمور ويطمئن الشعب إلى نجاح الثورة.
إضافة إلى ذلك فقد تحدث الغنوشي، ليس فقط عن عودته بالانتخابات الحرة، ولكنه بدأ بإطلاق وعود شعبية مثل تعويض شهداء الثورة! وهذا دليل قاطع على أن الغنوشي لا يحمل في قلبه مشروع ديمقراطي، فمن هو لكي يعد بتعويض أحد؟ أليس الشعب نفسه قد أصبح صاحب البلاد وهو الذي يقرر كيف يوزع ثرواتها وتعويضاتها، فمن أين لشخص لم ينتخب بعد أن يعوض الشعب؟
إثر رفض الشعب بوعي، تم إبدال بعض الوجوه في الحكومة الجديدة بوجوه ربما تكون أقل إثارة للريبة في محاولة واضحة لبناء ثقة لا أساس لها بين الناس. (1)

مصر

في مصر، الثائرة العزيزة الرائعة الأخرى، تجري الأمور بنفس الطريقة تماماً، عدا تبادل في التفاصيل. ففي البلدين لم يهزم النظام بعد، بل هو ينسحب من خندق إلى آخر، ويحاول إقناع الشعب في كل مرة ومن خندقه الخلفي، بأنه، أي الشعب، قد حقق مطالبه وأن الأمر أصبح بيده وأنه لا داعي للاستمرار بـ "الإضرابات".
الفرق بين تونس ومصر في التفاصيل، في حالة تونس، هرب بن علي وترك حكومته تقنع الشعب بأن التغيير قد حصل. أما في مصر، فقد أقيمت الحكومة وترك الرئيس مبارك ليقنع الشعب بأن التغيير قد حدث. ولا يحتاج المرء إلى أي ذكاء ليقرر أن الرئيس الدكتاتور وحكومته شيء واحد، لا يفترقان إلا شكلياً، وعند الضرورة اللازمة لخداع من يمكن خداعه. فإن استلم أحدهما زمام الأمور، أعاد الثاني، وإن لم يعد الثاني فإن النظام السيء باق ما بقي رمز من رموز الدكتاتورية السابقة، فهم شلة من المجرمين

الذين يرتبط مصيرهم جميعاً بحبل واحد وليسوا من الحمافة لكي لا يدركوا ذلك. وفي كل الأحوال، لو كان هناك احتمال للشك بمقدار 1% بنوايا هؤلاء فيجب على الشعب أن لا يغامر بمصير ثورته حتى بـ 1% ، والشكوك أكبر بكثير بلا شك.

قال مبارك "انني انحاز كل الانحياز للحرية وأؤيد مطالب الشباب المصري" ..
لو كان هناك نكتة يراد تأليفها للسخرية من ما يجري، لما كان سهلاً أن نجد كلمات أفضل من هذه!
عمر موسى كان مضحكاً أيضاً وهو "يحترم" رأي الناس "بإجراء إصلاح" وداعياً إلى "عدم حدوث انفجار كبير" و فوضى.(2)
قال مبارك أن شباب مصر هو أعلى مالدتها" .. نعم .. وتعهد بالقيام بـ "خطوات جديدة" على طريق الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ...صحيح! احتاج مبارك 82 عاماً من العمر منها 30 عاماً في صناعة رجال الأمن الوحشي في مصر لإضطهاد الشباب، لكي "يفهم" الآن أن الشباب هم أعلى ما لديها..(3)
ولعلنا، ولو من أجل النكتة، نذكر مبارك بنداءه إلى صدام حسين بالرحيل ليجنب بلاده الدمار أمام الأمريكان، فهل سيتذكر ذلك في مواجهة شعبه الذي يريد رحيله وليس محتل أجنبي؟

مواقف متشابهة: إسرائيل وأميركا... والأزهر وعباس والسعودية

معروف أن النظام المصري نظام مخلص لإسرائيل بامتياز، وقصة محاصرته لغزة تقول الكثير. تقول الأنباء أن **إسرائيل تراقب** الأحداث في مصر " بدقة (4) والحقيقة أن تلك عبارة خادعة، فالمنطق يقول أن "إسرائيل تقود إدارة حكومة مصر للأحداث في مصر بدقة" ومحاولتها السيطرة عليها، فتلك الحكومة "كنز" لإسرائيل وأمنها كما قال بن البعازر. ولأن المرحلة دقيقة للغاية فأن الحفاظ على ذلك "الكنز" يتطلب الحذر الشديد، لذلك فأن رئيس الوزراء **بنيامين نتانيا هو طالب** جميع الناطقين الرسميين ووزراء حكومته بعدم التحدث إلى وسائل الإعلام بشأن ما يحصل في مصر.(5)
وبالفعل في هذه الأثناء وصلت الأخبار بوصول عدة طائرات إسرائيلية إلى القاهرة، محملة بالأسلحة المختلفة للقضاء على التظاهرات ومنها اسلحة قنص لقتل قيادات التظاهرات.
أما الأزهر، والذي سبق لي أن كتبت أنه مؤسسة تابعة للموساد، لم يكن بحاجة إلى من يأمره بالصمت، فقد ساد هو ومشايخه وخطباء الجمعة صمت مطبق، على الأقل حتى وقت متأخر جداً.

اما عن موقف أميركا من الثورتين **فقال مختار كامل** مسؤول الاتصال في منظمة تحالف المصريين الامريكانيين ان تأثير الثورتين في تونس ومصر يوازي تأثير الثورة الفرنسية في العالم الغربي، وستكون لهاتين الثورتين انعكاسات عميقة جدا في الشرق الأوسط وفي العالم الإسلامي وبالتالي في العالم بأسره. ووصف كامل الموقف الأمريكي من الأحداث في مصر بأنه غير مشرف (6)

وقال كلوفيس مقصود السفير السابق لجامعة الدول العربية في هيئة الأمم المتحدة ان الولايات المتحدة الأمريكية تريد ان يكون في مصر "نظاماً أكثر انفتاحاً وتلبية لمطالب الشعب"، خوفاً من تحول المعارضة الى "مشروع بديل" قد يكون ذو نفس "تحرري" يرمي الى استعادة مصر لدورها الإقليمي، وان الأمريكيين معينين بالإبقاء على النظام الحالي شريطة اعتماد "سياسة انفتاحية"، تعنى بحل المشاكل الاجتماعية التي يواجهها المواطن البسيط كالبطالة والتصدى للفقير، بالإضافة الى الاهتمام أكثر بالدفاع عن حقوق الإنسان. وقال ان مصلحة إسرائيل "أمناً" تقتضي استمرارية النظام الحاكم حالياً في مصر، مشيراً الى انه من شأن تغييرات ما في مصر قد تفرز نظاماً ملتزماً بالثوابت العربية وراعياً لإسرائيل، ان تضع حداً "لانفلات إسرائيل" وتحويل دون "استباحة الحقوق الفلسطينية" كما هو الحال في الوضع الراهن.(7)

ويبدو **موقف "الرئيس" عباس** مؤيداً لتحليلات السيد مقصود، فمن دون غيره من العرب، تجرأ (مع ملك السعودية) بالإتصال بحسني مبارك معبراً عن تضامنه، فهو يريد أن يبقى "الانفلات الإسرائيلي" مستمراً، حيث أن ذلك الانفلات يمثل بقاءه على رأس السلطة، وربما على قيد الحياة، وكلنا نذكر كيف أنه كان يحث الإسرائيليين على استمرار القصف لغزة بأكثر مما يريدون أنفسهم!
ولا يختلف عنه شريكه في المصير، **ملك السعودية** الذي لم يقبل غيره باستقبال بن علي، محتقراً إرادة الشعب التونسي، وهاهو يوجه احتقاره للشعب المصري بدعم جلالة الساقط، ومن غير المستغرب أن يقف هذا الرجل ونظامه، مثلما يقف عباس ونظامه، ضد أي شعب من الشعوب العربية، فعبد الله لا علاقة له بكلمات مثل "الشعب" أما عباس فعبر عن رأيه بالشعب من خلال احتقاره لنتائج الإنتخابات الحرة التي طرده فيها من الحكم فبقي بالدعم الإسرائيلي وحده. (8) ومن الطبيعي أن تكون مواقف الشعوب العربية بالعكس من مواقف سجانيتها، فهي تراقب معركتها على ارضي تونس ومصر وتعبر عن ذلك أحياناً بالتظاهرات كما حدث في **سوريا (9) والولايات المتحدة (10) ولبنان. (11)**

اختار مبارك أيضاً لرئاسة الحكومة ضابط في الجيش، هو الفريق أحمد شفيق، واختار مبارك لنيابته رجلاً من المخابرات العسكرية، **اللواء عمر سليمان** البالغ 75 عاماً والذي ترأس فرع التخطيط العام في هيئة عمليات القوات المسلحة وإدارة المخابرات العسكرية ثم رئاسة جهاز المخابرات العامة المصرية بدءاً من عام 1991، وكان محملاً بمسؤولية الملف الفلسطيني الإسرائيلي، ويعلم الجميع موقف مصر في هذا الملف، وبأنه لا يكاد يتميز عن الموقف الإسرائيلي. (12)
ومثلما هو معروف بأن رجل أميركا في العراق أياد علاوي يتواجد في عمان أكثر من تواجده في بغداد، يقال عن عمر سليمان أنه يتواجد في تل أبيب أكثر من تواجده في القاهرة.
أن مثل هذه الخيارات كفيلة بأن ترش الماء البارد على أي موهوم بأي احتمال بأن السلطة قد استسلمت وقبلت بتطلعات الشعب المصري.

كذلك، ما يؤكد رأينا، وفي هذه الأثناء تصدر التعليمات التي تبين الإتجاه الذي ستتخذه الحكومة وماهية تلك "الإصلاحات" التي وعدت بها، فأصدر وزير الإعلام المصري في الحكومة المقالة أمس، [قراراً بإغلاق مكتب قناة "الجزيرة"](#) في البلاد، وسحب بطاقات اعتمادات كافة مراسليها بدون استثناء. (13) إن القرارات التي تعرقل الإعلام، لا تسبق إصلاحات إيجابية في العادة.



لقد لجأ النظامين، كما لجأ غيرهم، إلى إطلاق رجال أمنه ليعيثوا فساداً ويقوموا بالتخريب، والهدف الأول هو البرهان على أن الثورة عبارة عن مجموعة مخربين ولصوص، فإن تمكن الشباب الثائر من التصدي لهم وحماية الممتلكات العامة، فيكونوا قد أشغلوا نسبة من ذلك الشباب بعيداً عن التظاهرات، أملاً في إعطائهم الوقت اللازم للسيطرة عليها.

خاتمة

نستطيع أن نقول بثقة أنه على الأغلب الأعم، فليس هناك شريف واحد يمكن الإطمئنان له في التشكيلتين الحكوميتين الجديتين، من وجوه النظام السابق. لأنه لو افترضنا وجود هذا الشريف، على صعوبته بالنسبة لمشاركين في أنظمة قمعية لعقود عديدة، لو افترضنا أن هناك نائب من هذا النظام، المفروض به ان لا يقبل بمشاركة الآخرين من النظام، فهو يعرف جيداً بأنهم غير موثوق بهم. وفي مصر، ومقابل بعض عبروا عن ثقتهم باللواء سليمان، فإن جماهير الإسكندرية كانت تهتف، ليس فقط برحيل مبارك، وإنما أيضاً، "إرحل إرحل يا سليمان، إرحل إرحل أنت كمان" رافضة البديل الملعوم بوعي تام. الإكتفاء بتغيير رؤوس النظام على رمزيتهم الشديدة الأهمية، فإنه لن يزجج من يحرك الأمور من خلف الستائر، وربما يناسبهم حيث يأتي بوجوه جديدة قادرة على خداع الناس بشكل أفضل، تماماً كما حدث عندما تم استبدال السادات بحسني مبارك إثر فضيحة الأول التي تركته غير قادر على خدمة هؤلاء بشكل كفوء.

محاذير ثورة تونس: أمتصاص الزخم والقبول بوجوه النظام السابق

تتعرض ثورة تونس اليوم إلى خروجها المفاجئ من دائرة الضوء وتركزه بدلاً عنها، على الثورة المصرية التي جاءت بعدها، وهو ما يفقدها المتابعة الجماهيرية والعالمية لها، ويوفر لها بعض الحماية من عنف النظام السابق. ويحاول النظام السابق في تونس في تقديره، ومن خلال مبادراته، أن يثبت ما يمكن أن يثبت من رجالاته استعداداً للإففاض على الثورة في الوقت المناسب، أو على الأقل لعملية قد تكون سلمية، تهدف سلب الثورة أهم اهدافها وبشكل تدريجي. الهدف الحالي هو إيقاف الزخم الشعبي، وذلك من خلال التركيز على الأضرار الاقتصادية للثورة وضرورة عودة الحياة كما كانت، وبسرعة. وفي نفس الوقت تقديم الحكومة المؤقتة التي شكلها الغنوشي على أنها البديل الوحيد الممكن للفوضى في البلاد، حتى أن بعض القيادات الشعبية التونسية التي حاولت العودة من الخارج، تم الإعتداء عليها، كما نشط اختطاف قيادات التظاهرات وتخريب المنشآت.

من الواضح أن النظام السابق في تونس، (وكذلك في مصر) لم يسقط، وأنه يتراجع تدريجياً وبشكل محسوب من خندق إلى خندق، ويجرب الصمود في كل مرحلة، والإستعداد للإسحاب إلى الخندق التالي أو الهجوم على الشعب إن قدر أن الفرصة مواتية.

وبدأ الغنوشي ورموز حكومته ينقلون الحديث تدريجياً من المطالب الأساسية السياسية الديمقراطية، إلى القضايا الاقتصادية، والإستثمار والمستثمرين الأجانب الذين "يراهنون على تونس"، واستدعاء الخبرات التونسية من الخارج، وهي أمور تبدو كمحاولات ترضية للشعب أكثر مما هي مهمات حكومة انتقالية، ويفترض أن لا يكون لها مكان في الحديث في هذه اللحظة الحرجة من تاريخ الثورة. **وتحدث الغنوشي** عن "تحقيق عدالة اجتماعية أكبر" (وليس "العدالة الإجتماعية") و عن المناطق المحرومة، والمفروض أنه سيكون في حكومة مؤقتة لا مهمة لها سوى التحضير للإنتخابات القادمة فإذا به يتحدث عن تغيير في أمور أساسية لا يمكن إحدائها في بضعة أشهر، مثل العدالة الإجتماعية. (14) ولم يتردد الغنوشي في الإطراء على رفاقه الذين طالب الشعب برحيلهم من حكومته وقال "التاريخ سيسجل ما قاموا به من مبادرات للحفاظ على أرواح التونسيين، وما عبروا عنه من رغبة في الانسحاب عندما لاحظوا انه طلب الشعب أخذين في الاعتبار المصلحة الوطنية قبل كل شيء لإنقاذ الثورة ولتمكين تونس من الانتقال الديمقراطي". فكل الجرائم التي ساهم هؤلاء فيها في اضطهاد الشعب التونسي لم تعد موجودة، ولن "يسجلها التاريخ" إنما سيسجل تضحياتهم الكبيرة في "الإنسحاب"! والعجيب أيضاً أن السيد الغنوشي وبقية النخلة المحسوبة على الحكم القديم، لم تبادر إلى المشاركة بهذه الإستجابة التاريخية للشعب وتتسحب من أجل طمأنته وإعادة الأمور إلى الإستقرار في البلاد!

ومن جهة ثانية وعدت الحكومة بتعويض أهالي شهداء الثورة لتمتص جزء من الغضب، وتحويل هدف الناس إلى تفاصيل غير مهمة. وبالفعل شرعت جهات حكومية بعدد من الولايات في صرف **التعويضات لاهالي شهداء** و جرحى الثورة الشعبية ، بمعدل 20 الف دينار لكل عائلة. (15) كذلك جرى التركيز على ضرورة استئناف الدراسة، بشكل مبالغ به، فإن تأخر الدراسة لبضعة أشهر في قضية مصيرية للبلاد أمر ليس كارثياً. وبالفعل **استؤنفت الدروس** بصفة جزئية في الجامعات التونسية ومن المتوقع ان تستأنف كلياً في بداية الاسبوع المقبل. (16)

أن الذين لم يخدموا في تونس بعبارات بن علي السخيفة "فهمت.. فهمت" جدير بأن لا يخدموا بمحاولات الغنوشي بإقناع الناس بأنه كان شخصاً عديم الإرادة مسيراً بيد بن علي لربع قرن، فإن كان كذلك، فمن أين أتت اليوم هذه الإرادة المفاجئة والإصرار على استلام مقادير الأمور وتسيير تونس في هذه المرحلة الحرجة؟ أن الكذب قلما يستطيع الإفلات من التناقض الذي يفرضه.

وفي الوقت الذي يخشى على الثورة التونسية من تراجع الزخم والإسترخاء، فإنه بالمقابل يخشى عليها من بعض التشدد في بعض الأمور التفصيلية، وأقصد هنا محاولة إشاعة ملاحقة رموز النظام الذين هربوا إلى الخارج، في هذه المرحلة الحرجة التي لم تنتصر فيها الثورة بعد ولم تثبت أرجلها على الأرض.

إن المطالبة بإعادة زين العابدين بن علي لمحاكمته، مطالبة عادلة تماماً ورائعة بكل معنى الكلمة، لكنها في تصوري لا تخدم الثورة في هذه اللحظة لأن التركيز الآن يجب أن يكون على إنجاز الثورة وليس محاسبة أعدائها. لذلك فالمفروض أن يترك الباب مفتوحاً لهؤلاء للخروج من البلاد وتشجيعهم على ذلك. فإن إعادة زين العابدين، أو التهديد بذلك، سوف يضع أعمدة النظام في مواجهة حياة أو موت مع الثورة، وبالتالي فسوف تتعرض الثورة للخطر، فمزال للنظام أدواته التي لا يستهان بها إن تم حصرها.

محاذير ثورة مصر: الترحيب البالغ بالجيش

وفي مصر، من الظواهر الملفتة للنظر، والمثيرة للقلق أيضاً، الترحيب البالغ بين المتظاهرين بالجيش المصري. والإعتماد عليه والثقة به بشكل غير محدود.

ورغم أن استمالة الجيش من التكتيكات المعروفة في الثورات في الفترة الأخيرة، فليس المقصود أن يذهب الشعب بعيداً في تلك الإستمالة إلى درجة إطاعة الجيش واتباع أوامره، بل جعل الجيش ينفذ لثورة الشعب. لكن ما يجري في مصر الآن، يبدو أن الجيش هو الذي يفرض اجندته وبلا مشاكل! وكان التظاهرات تقول دعوا الجيش الرقيق يمنعنا وليس الشرطة العنيفة!

لقد **قال البرادعي** موجها رسالته للجيش المصري "أقول للقوات المسلحة إن دوركم أن تحموا مصر، يجب أن تقفوا مع الشعب المصري وليس مع الطغيان". (17) لكن لم يبدر من الجيش المصري حتى الآن ما يدعو إلى الإطمئنان، عدا بعض المظاهر الشكلية مثل وضع لافتات تظاهرات على الدبابات، بل أن وزارة **الدفاع المصرية أعلنت** في بيان لها أمس السبت انها ستعامل بكل حزم و"قسوة" مع الخارجين على القانون ومن يقومون بالسلب والنهب وتخويف وترهيب الناس... وبالطبع فإن وزارة الدفاع هي من سيقرر من هم "الخارجون عن القانون". (18)

وحتى الآن نجد أن ما قام به هذا الجيش هو ضمن أجندة الحكومة بدون أي شك فقد حمى وزارة الداخلية والإذاعة من الجماهير، وبدون أية إشكالات، ولا أستبعد أن الحكومة هي التي طلبت من الجيش أن يتظاهر باللطف التام مع المواطنين ليفرض إنجازهم لمهامهم في حماية المراكز الحساسة للحكومة. لذا يجب أن يتم الإنتباه إلى هذه النقطة الخطيرة وتصحيحها بأسرع وقت ممكن.

(1) <http://www.akhbar.tn/?p=74983>

(2) http://arabic.rt.com/news_all_news/62416

(3) http://arabic.rt.com/news_all_news/62379

(4) http://arabic.rt.com/news_all_news/62484

(5) http://arabic.rt.com/news_all_news/62401

- http://arabic.rt.com/news_all_news/62391 (6)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62395 (7)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62422 (8)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62469 (9)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62468 (10)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62446 (11)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62442 (12)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62487 (13)
- <http://www.akhbar.tn/?p=75068> (14)
- <http://www.akhbar.tn/?p=75304> (15)
- <http://www.akhbar.tn/?p=75330> (16)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62441 (17)
- http://arabic.rt.com/news_all_news/62435 (18)